المبحث الثاني
مدى إمكانية تحقيق التنمية في العالم الإسلامي بتلك المناهج

تمهيد

بعد أن عرضنا للمناهج التي تذخر بها ساحة الفكر الإنمائي على مستوى العالم الثالث، والذي يمثل العالم الإسلامي أغلبية فيه، نريد التعرف على الإمكانية الحقيقية والقدرات التي تستطيع هذه المناهج أن توفرها للعالم الإسلامي في مجال تحقيق التنمية الاقتصادية. فهل هي قادرة على جذبه من حضيض الفقر وحماة التخلف إلى ذرى التقدم؟ أم أنها تؤدى إلى تكريس التخلف وتعميق التبعية، ومحو الشخصية الإسلامية، ثم نجد أكفنا تقبض من ثمارها على ريح، وتحصد من زرعها الشوك والسعدان؟

فهل يتوفر لهذه المناهج الشروط الضرورية التي يقضى الفكر السليم بضرورة توفرها في أي منهج صالح؟ أم أنها لا تملك أن تقدم للعالم الإسلامي ما سبق أن قدمته للمناطق التي نشأت فيها غرب أوروبا وشرقها؟ إن هذا المبحث سيجيب على هذه التساؤلات بحيث يتركنا في نهايته وقد تعرفنا على القدرات الحقيقية لهذه المناهج وإمكانية مساهمتها في تنمية العالم الإسلامي من عدمها، وذلك من خلال المطالب الثلاثة التي يضمها وهى:

المطلب الأول: المقومات التي يجب توافرها في المنهج الناجح

المطلب الثاني: مقومات المنهج الناجح والمنهج الرأسمالي في العالم الإسلامي

المطلب الثالث: مقومات المنهج الناجح والمنهج الاشتراكي في العالم الإسلامي

۞ ۞ ۞ ۞

المطلب الأول

المقومات التي يجب توافرها في المنهج الناجح

لم ينكر أحد مهما كان اتجاهه الفكري أن الرأسمالية حققت تقدماً كبيراً[١] ونجاحاً هائلاً، وأنصارها يؤمنون باستمرار نجاحها. بينما معارضوها يقرون هذا النجاح ويقولون ـ طبقاً لنظرياتهم في التطور ـ أنها أدت دورها في حينه، وعليها أن تتخلى الآن لمن هو أقدر منها، وهو المنهج الاشتراكي، وذلك في نظرهم حتمية تاريخيه.

والذي يهمنا من ذلك هو الإجماع على نجاح الرأسمالية كمنهج للتنمية في غرب أوروبا، فهل نستطيع أن نتخذ من العوامل التي أدت إلى نجاحها شروطا موضوعية يجب توافرها في أي منهج كي يكتب له النجاح؟ وإجابتنا على هذا السؤال هي بالإيجاب. فدراسة الشروط الموضوعيه التي مكنت الرأسمالية من تحقيق التنمية في غرب أوروبا، كفيلة بأن تقدم لنا الشروط الموضوعية والمقومات التي لابد من توافرها في المنهج القادر على تحقيق التنمية الاقتصادية.

فما هي هذه الشروط أو تلك المقومات؟

إن ذلك هو موضوع فروع هذا المطلب الثلاثة:

۞ ۞ ۞ ۞

الفرع الأول: المادية في المنهج الرأسمالي لأوروبا

ليس هناك من خلاف بين المفكرين على أن المنهج الرأسمالي في التنمية منهج مادي لا يقيم كبير وزن للأخلاق عامة وللأخلاق الدينية خاصة، فجوهره الإعلاء من شأن حافز الربح المادي وجعله محرك النشاط والباعث إليه.

وليس أدل على مادية المنهج من أن أقطابه يفتخرون بأنهم أول من خلص الدراسات الاقتصادية من الخضوع للاعتبارات الأخلاقية والدين، ولا يعنينا هنا أكثر من تقرير أن المنهج الرأسمالي منهج مادي، فلا يوجد قطعا من يدعى أنه منهج يمت إلى الروح بصلة. وإذا كان هذا هو واقع المنهج الرأسمالي فما هو

---

(١) أحمد جامع، الرأسمالية الناشئة، مرجع سابق، ص١٤٦.

واقع المجتمعات التي نجح هذا المنهج في إعطائها التقدم؟ وما هو نوع التقدم الذي قدمه لها؟ وهل هناك نتيجة يمكن الوصول إليها من العلاقات بين المنهج والمجتمع ونوع التقدم الذي تم؟

بخصوص السؤال الأول فإن الحضارة الأوروبية نشأة واستمراراً، هي حضارة مادية لا تمت إلى الروحانيات بصلة، وهي مرت بالمسيحية مروراً عابراً بل الحقيقة أن أوروبا لم تكن مسيحية قط في يوم من الأيام[١] فمن الخطأ الفادح أن نعد المدنية الغربية الحديثة نتاج النصرانية. إن الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب أن تطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من أي استشراف مطلق، ويمكن التعبير عنها كما يلي: بما إننا لا نعرف شيئاً معيناً من طرق الاختبار العلمي والتقدير الحسابي ـ لا عن أصل الحياة الإنسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد ـ فإن من الخير لنا أن نحصر قوانا في وجوه إمكاننا المادي والفكري من غير أن نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية. فلا ريب إذا في أن هذا الاتجاه الذي تتميز به المدنية الغربية الحديثة لا يجد قبولاً في التفكير الديني المسيحي، كما لا يجد قبولاً في أي دين آخر، وذلك لأنه لا ديني في جوهره. وهكذا تكون نسبة نتاج المدنية الغربية الحديثة إلى النصرانية خطأ تاريخيًّا عظيماً[٢]. أن الأوروبي العادي سواء أكان ديمقراطيًّا أم فاشيًّا رأسماليًّا أم بلشفيا صانعاً أم مفكراً يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر أو كما يقول التعبير الدارج «طليقة من كل قيد»...وأسمى فارق بين الخير والشر لدى هذا الإنسان إنما هو التقدم المادي[٣].

---

(١) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، لجنة النشر للجامعيين، القاهرة، ط١، ص ص٩- ١٠.

(٢) ليوبولد فايس، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة د/ عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ط٩ سنة ١٩٧٧، ص٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص٤٧-٤٨.

تلك هي التربة التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة، ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة غير الفكرة المادية الرومانية أثناء تطورها، كما أنها بدلت وغيرها في إرثها الذي ورثته عن روما في أكثر من ناحية «لكن الحقيقة الباقية أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف الغربي للحياة والأخلاق يرجع للمدنية الرومانية المادية، وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في روما القديمة كان نفعياً بحتاً ولا دينياً، لا على الافتراض بل على الحقيقة، فذلك هو الجو في الغرب الحديث»[١].

فأوروبا مادية وثنية وما يدرس في التاريخ الوسيط على أنه سيطرة للمسيحية فقد كانت سيطرة للكنيسة وليس للمسيحية، ثار عليها الأوربيون فلما تخلصوا من تلك السيطرة أقامت أوروبا من نفسها زعيما بكل ما هو ضد الدين مبدئياً وعملياً، فقد رجعت أوروبا إلى إرثها الروماني، وأضافت عليه عنصراً مادياً جديداً، وأخذا يعبدون المال كما عبد بنو إسرائيل العجل الذهبي[٢].

تلك كانت التربة التي غرس الأوربيون فيها المنهج الرأسمالي، تربة مادية ترجع إلى الوثنية الرومانية، وغرس فيها المنهج الرأسمالي المادي ـ مع التجاوز في هذا التعبير، إذ هي أنبتته ـ فما الذي طرحه لهم؟ لقد طرح التقدم المادي، وهكذا تتسق المقدمات والنتائج، تربة مادية ومنهج مادي، يطرحان تقدماً مادياً، ولقد كان شيئاً طبيعياً أن يكون المنهج الرأسمالي أصلح ما يغرس في هذه البيئة فما كان لغيره قدرة على أن يستمد منها غذاءه ـ بينما هو قادر على امتصاص كل العناصر التي تمكنه من أن يستوي على سوقه ليطرح أفضل ما لديه من ثمرات، تقدماً مادياً منقطع النظير، يأبى من منهج مادي من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

لقد حدث توافق بين المنهج والبيئة، كان نتيجته تحقق التقدم، وهكذا يكون توافق المنهج المطبق مع البيئة التي تنمى بواسطته، أحد الشروط الجوهرية لنجاح

---

(١) المرجع السابق، ص٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥

أي منهج إنمائي. فلو لم تكن البيئة الأوروبية مادية لما تمكن المنهج الرأسمالي من تنميتها.

الفرع الثاني: المنهج الرأسمالي وتجنيد طاقات الأوروبيين للتنمية

رأينا كيف أن البيئة الأوروبية هي بيئة مادية ورثت الفكر المادي عن روما التي ورثت حضارة أعرق منها في المادية هي الحضارة اليونانية، فأوروبا ضليعة في المادية، بنت روما وحفيدة يونان.

فماذا حدث عندما سيطر الفكر الكنسي ـ لا المسيحي ـ في فترة ما قبل النهضة؟

لقد أدركت أوربا روحها المادية، فقام «كالفن» يدعو إلى اعتبار النجاح المادي دليلاً على اختيار الله للإنسان، وعلى كل إنسان أن يتأكد من موقفه ببذل محاولات النجاح المادي، فإن أدركه علم أنه مختار. وهكذا كانت حركة الإصلاح الديني عودة إلى إعلاء شأن المادية، ووجهت كل طاقات الإنسان للنجاح المادي والحصول على أكبر قدر من الثروة[1].

وهكذا تشكلت نفسية الأوروبيين أو ظهر معدنهم الطبيعي، وأصبح كل فرد مدعوا لتحقيق إنجاز مادي، كي يثبت أنه مختار، إنجاز مادي بوسيلة ما، أيًا كانت، سواء تمثلت في استغلال الغير، أم في استرقاق الشعوب ونهب مواردها أم في خطف الأفارقة وبيعهم رقيقا، وتكوين الثروات والنجاح المادي.

هذه النفسية جاءها المنهج الرأسمالي أو هي جاءت به، بما يحمله من حافز الربح، وحرية النشاط، والملكية غير المحدودة، فكان كفيلا بأن يستخلص منها كل طاقاتها الكامنة ويستثمرها لصالح التكوين الرأسمالي وبناء الإمبراطوريات المالية، وتحقيق التقدم المادي، لقد اتحدت الأفكار التي يمثلها المنهج مع الأفكار التي يحملها البشر بين جوانحهم وتكنها ضمائرهم، فاستطاع المنهج أن يفعل في الأفراد فعل السحر، حيث جند كل قدراتهم لتحقيق ما يرمى إلى تحقيقه.

---

(١) أحمد جامع، الرأسمالية الناشئة، مرجع سابق، ص٢٠.

وكان طبيعياً من منهج مادي يطبق في مجتمع يعلي من شأن كل ما هو مادي أن ينجح في تجنيد طاقات الأفراد، ويستثير هممهم نحو تحقيق ما يرمي إلى تحقيقه.

إن توافق شروط المنهج الرأسمالي مع فكر البشر في أوروبا قد تمكن من حفز الأفراد على القيام بالأعمال الاقتصادية، وبذل الجهد المضاعف من أجل الحصول على الثروة والاستحواذ عليها بنهم ليس له حدود، حتى وجد ذلك الشخص الذي يجمع المال للمال حسب تعريف ماركس للرأسمالي[1]. لقد تمكن المنهج من أن يجعل من الأفراد أدوات طيعة لتحقيق التجميع الرأسمالي لاستخدامه في زيادة التجميع مرة أخرى، وبناء التنمية الاقتصادية.

وهكذا يتضح لنا أن قدرة المنهج على حفز همم الأفراد، وتحريك مشاعرهم، وتوظيف طاقاتهم في الاتجاه البناني للتنمية، إنما يتحقق بتوافق الأفكار التي يحملها الأفراد في ضمائرهم ـ أي معتقداتهم ونظرتهم إلى الكون والحياة والإنسان ـ مع الأفكار الرئيسية التي يتكون منها المنهج، ومن ثم فإن هذه القدرة التي تتاح للمنهج شرط جوهري آخر لابد من توفره في المنهج القادر والصالح لتحقيق التنمية الاقتصادية.

الفرع الثالث: المنهج الرأسمالي والظروف المتغيرة

إن المتتبع لتاريخ الرأسمالية الأوربية في القرن العشرين ليرى سلسلة من المصاعب لحقت بالبناء الرأسمالي الأوروبي. ولعل أهمها ما لحق بها في الفترة ما بين ١٩١٧ – ١٩٣٥ مثل.

١- انهيار التجارة الدولية عقب الحرب الأولى، تلك التي تعد من العمد الرئيسية للبناء الاقتصادي الرأسمالي.

٢- الكساد الذي أصاب الرأسمالية عام ١٩٢٩ فضاعف من انهيار التجارة الدولية، بسبب سعي كل مجتمع إلى تحصين نفسه، بإقامة حواجز أعلى في طريق التجارة الدولية والاتصالات الاقتصادية مع الدول الأخرى، فعلى

---

(١) كارل ماركس، رأس المال، ترجمة محمد عيتاني، مكتبة المعارف، بيروت، ج٣، ص٨٥٣.

امتداد ٥٣ شهراً بعد يناير ١٩٢٩ كان حجم التجارة الدولية في كل شهر منها أقل من الشهر السابق عليه[١]، هذا فضلا عن آثار الكساد الأخرى من توقف شبه تام للنشاط الاقتصادي، إلى البطالة الواسعة النطاق، والتي هددت الرأسمالية في مبادئها الجوهرية عن التوازن التلقائي.

٣- نجاح الثورة الاشتراكية في روسيا متحدية العالم الرأسمالي أجمع، وأوروبا الغربية بالذات، وتهديدها بقرب سقوطها في قبضة الشيوعية، ولقد بات أقطاب الرأسمالية في وجل من هذا فعلا.

تلك أهم الضربات التي تلقتها الرأسمالية كمنهج للتنمية الاقتصادية في غرب أوروبا، ومع ذلك لم تنته، وإنما تمكنت من التغلب على تلك المصاعب واحدة إثر أخرى، واستطاعت أن تواجه هذه الصدمات وأن تجتازها وتخرج منها ـ ربما ـ أكثر قوة عن ذي قبل واستطاعت بغير شك أن تدخل فترة أعظم نمو اقتصادي شهدته الرأسمالية الأوروبية حتى أنها تخطت لأول مرة المعدلات الأمريكية المعاصرة في النمو، وتفوقت عليها[٢].

فبخصوص الكساد الكبير تمكنت من تعديل موقفها تجاه التدخل الحكومي بما يخرجها من هذا الكساد، ويحول دون أمثاله، وكانت من المرونة بحيث تقبلت هذا التغير في أصولها وقواعدها.

وبخصوص انهيار التجارة الدولية أو ضعفها، فلقد تمكنت الرأسمالية الأوروبية من التغلب على النعرات القومية التي كانت تقسمها اقتصاديا، وقامت بخطوة كبيرة في مجال الوحدة الاقتصادية عندما أقامت «السوق الأوروبية المشتركة». وبخصوص التحدي الشيوعي فلقد تمكنت الرأسمالية الأوروبية من سحب البساط من تحت أقدامه، عندما تبنت سياسة العدالة الاجتماعية والعناية بالطبقات الأدنى. الأمر الذي جعل وضع العمال بأوروبا الغربية فوق أحلام العمال بالدول الاشتراكية، وتتبنى هذه السياسة الحكومات الإصلاحية والمحافظة

---

(١) هيلبرونر، كيف نصنع المجتمع الاقتصادي لتحقيق التنمية، ترجمة د/ راشد البراوى، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٣٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص٣٥٥.

على السواء، فحكومات الأحزاب الاشتراكية في غرب أوروبا هي حكومات إصلاحية، أي أنها حكومات حافظت على الرأسمالية ومنهجها الإنمائي.

وهكذا نرى المنهج الرأسمالي قد استجاب للمتغيرات التي واجهت مسيرته فتلاءم معها، واستطاع أن يعيش بل وأن يحقق معدلات نمو أعلى مما كان يحقق أيام البدايات الأولى للرأسمالية. ومعنى ذلك أنه يتمتع بمرونة كافية لكي يحور قليلاً من أسسه بما يتفق والظروف المتغيرة، ولولا ذلك لانكسر أمام الصعاب التي مرت به. فمرونة المنهج إذا من الشروط الجوهرية التي لابد أن يتمتع بها المنهج الصالح لتحقيق التنمية الاقتصادية.

والخلاصة أن المنهج الرأسمالي ـ وقد أجمع أعداؤه وأصدقاؤه على أنه نجح في تنمية أوروبا الغربية ـ إنما تحقق له ذلك للأسباب الآتية:

١- أنه كمنهج مادي يتفق مع البيئة الأوروبية المادية التي طبق فيها.

٢- أنه لحمله الأفكار التي يكنها الأفراد في ضمائرهم، قد تمكن من استثارة هممهم وتجنيد طاقاتهم واستثمارها لصالح التنمية الاقتصادية.

٣- أنه استجاب للظروف المتغيرة، وقبل التحوير في أصوله فتمكن من الاستمرار.

ولو قمنا بدراسة المنهج الأوروبي الثاني «الاشتراكية» لرأينا أنه يحقق نفس الشروط في روسيا السوفيتية.

وبالتالي فإننا نستطيع أن نقرر أن أي منهج يود النجاح في تحقيق التنمية بمنطقة ما لابد أن يتصف بما يلي:

١- التوافق مع البيئة التي يطبق فيها.

٢- القدرة على استثارة همم الجماهير وتوظيف طاقاتها لصالح التنمية.

٣- التمتع بقدر من المرونة أمام المتغيرات المتوقع مواجهتها أثناء سيره.

فهل تتوفر هذه الشروط في المناهج المطروحة على العالم الإسلامي؟ إن ذلك هو موضوع المطلبين التاليين.

۞ ۞ ۞ ۞